



### الشيخ رشيد رضا والعمل السياسي (1)

علمٌ من أعلام النهضة في العصر الحديث ، يتسم علمه وفكره بالشمولية والعمق، فقد كتب وحرر فصولاً في أصول الدين والفقه والإصلاح السياسي ، وركز كثيراً في تفسيره على سنن الله سبحانه في المجتمعات والأفراد ، واهتم بالتعليم والتربيـة وشـؤون المرأة ، ودعا إلى منهج أهل السنة ونبـذ التـقـلـيد والبدع والخرافـات ، مع اطـلاـع على ما يـكتـبـ في الغـربـ وما يـدـبـرـ ، حـارـبـ على جـبـهـتـينـ : أـهـلـ التـغـرـيبـ وـالـمـتـفـرـجـينـ وـأـهـلـ الجـمـودـ وـالـتـقـلـيدـ .

ليس هذا المقال بالذى يتحدث عن كل هذه الجوانب في حياة الشيخ رحـمه الله ، بل سأقتصرـ الحديثـ عنـ جـهـودـهـ وـرـؤـيـتـهـ السـيـاسـيـةـ وـمـوـاقـفـهـ حـيـالـ أـحـدـاـتـ عـصـرـهـ .

أسسـ الشـيـخـ مجلـتـهـ المشـهـورـةـ (ـالـمنـارـ) عامـ 1898ـ مـ وقدـ جـعـلـ مـنـهـ مـنـبـراـ لـلـإـصـلـاحـ منـ جـمـيعـ نـوـاحـيـهـ ، فـكـانـ مـتـابـعاـ لـلـأـحـدـاـتـ السـيـاسـيـةـ ، يـبـدـيـ رـأـيـهـ مـؤـيـداـ أوـ نـاـصـحاـ هـكـذـاـ كـانـ مـوـقـفـهـ مـنـ السـلـطـانـ عـبـدـ الـحـمـيدـ الثـانـيـ (ـ1876ـ -ـ 1909ـ) عـنـدـمـاـ كـانـ السـلـطـانـ يـتـعـرـضـ لـضـغـطـ دـاخـلـيـ وـمـؤـامـرـاتـ خـارـجـيـةـ فـيـكـتـبـ الشـيـخـ فـيـ الـمـنـارـ حـاـثـاـ الـمـسـلـمـيـنـ عـلـىـ دـعـمـ مـشـرـوعـ (ـالـجـامـعـةـ الـاسـلـامـيـةـ) الـذـيـ أـعـلـنـهـ عـبـدـ الـحـمـيدـ ، وـالـمـقـصـودـ وـحـدـةـ الـمـسـلـمـيـنـ أـمـامـ الـمـشـارـيعـ الـغـرـبـيـةـ السـاعـيـةـ لـتـفـتـيـتـ الـدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ كـمـاـ أـيـدـهـ فـيـ مـشـرـوعـهـ الـعـمـرـانـيـ وـهـوـ الـخـطـ الـحـدـيـدـ الـحـجازـيـ الـذـيـ يـرـبـطـ مـاـ بـيـنـ اـسـتـانـبـولـ وـالـمـدـيـنـةـ الـنـبـوـيـةـ .

وـرـغـمـ أـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ عـطـلـ الـدـسـتـورـ وـحـلـ الـبـرـلـيـمـانـ (ـمـجـلـسـ الـمـبـعـوثـانـ) لـأـنـهـ تـحـولـ بـنـظـرـهـ إـلـىـ فـوـضـيـةـ سـيـاسـيـةـ وـفـكـرـيـةـ ، وـرـغـمـ مـاـ يـشـاعـ عـنـ اـسـتـبـدـادـ عـبـدـ الـحـمـيدـ إـلـاـ أـنـ الشـيـخـ كـانـ يـعـلـمـ خـطـورـةـ زـعـزـعـةـ الـدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ وـأـنـ الـبـدـيـلـ عـنـ ذـلـكـ كـانـ وـاـضـحـاـ وـمـتـوقـعـاـ ، وـهـوـ تـقـسـيمـ الـدـوـلـةـ وـتـقـاسـمـ الـحـصـصـ بـيـنـ أـطـمـاعـ الـدـوـلـ الـأـسـتـعـمـارـيـةـ وـخـاصـةـ بـرـيـطـانـيـاـ وـفـرـنـسـاـ وـكـتـبـ يـصـفـ مـجـلـتـهـ .

المنار : إنها عثمانية المشرب حميديّة اللهجة تحامي عن الدولة العلية بحق .

ولكن الفئة التي كان يخشاها السلطان عبد الحميد والتي تأثرت بموجة القوميات التي ظهرت في الغرب والتي كانت تريد التحدث على الطريقة الغربية ، هذه الفئة التي تجمعت تحت اسم الاتحاد والترقي استطاعت أخيراً الانقلاب على السلطان وخلعه وأعلنت التزامها بالدستور وعودة مجلس المبعوثان ، وظن الشيخ أنهم صادقون في دعوام فايدهم في البداية ولكن سرعان ما اكتشف أمرهم وأنهم أتراك متعصبون ل القومية الطورانية ، وليس عندهم أي اهتمام بالرابطة الدينية التي تجمع مكونات الدولة العثمانية ، هذا عدا عن تفريطهم بأقاليم الدولة العثمانية مثل إقليم ليبيا أمام الغزو الإيطالي ، فقد سحب هؤلاء الاتحاديون الوالي التركي من طرابلس نتيجة انذار إيطاليا ، واتهمهم الشيخ بموالتهم للقوى الأجنبية حين فرطوا أيضاً بشرط العرب أمام الانكليز وتركوا إقليم البوسنة والهرسك لدولة النمسا .

في هذه الفترة أي قبل الحرب العالمية الأولى وفي عام 1912 م شارك الشيخ في تأسيس حزب اللامركزية العثماني في القاهرة ومن أعضائه : رفيق العظم ، ومحب الدين الخطيب ، والشيخ عبد الحميد الزهراوي وغيرهم من الشخصيات العربية وهو حزب يطالب بلامركزية إدارية للأقاليم العربية داخل الدولة العثمانية ، فكان الحرص دائماً على الرابطة العثمانية ، مع أن قناعة الشيخ رشيد أن جماعة الاتحاد والترقي التي انقلبت على السلطان عبد الحميد هم قوم ملحدة ، وصلوا إلى الحكم عن طريق يهود (سالونيك) .

وكان الشيخ يأس من المطالبة باللامركزية والبقاء مع الرابطة العثمانية فبدأ الميل إلى دولة عربية مستقلة تحقق بعض الطموحات مثل الاستقلال التام عن التأثير الأجنبي والالتزام بالصبغة الإسلامية للدولة .

وعندما أعلن الشريف حسين بن علي في مكة المكرمة ثورته على الاتحاديين الأتراك ظن الشيخ أن هذه هي طلبه ، فرحب بالشريف ملكاً على الحجاز وسافر إلى مكة لمقابلة الشريف حسين عام 1915 م وألقى في منى خطبة دعا فيها الحجازيين لتأييد الشريف في سعيه لاستقلال الحجاز ، لأن هذه المنطقة هي المؤهلة لتأسيس دولة عربية إسلامية ، ولم يعلم الشيخ باتصالات الشريف مع المندوب السامي البريطاني في مصر (مكماهون) وخلالصتها وعود من الانكليز بمساعدة الشريف والعرب على إقامة دولة عربية في شرقى البحر المتوسط من جنوب جبال طوروس إلى خليج عدن ، والشيخ رشيد رضا لا يصدق أبداً وعود بريطانيا بمساعدة العرب ، وهذا مما جعل الشيخ ينقلب على تأييده السابق للشريف ويبعد عن سياسة .

### الحرب الكونية الأولى وآثارها :

دخلت الدولة العثمانية بحكومة الاتحاد والترقي في هذه الحرب وفي محور ألمانيا المقابل للحلفاء بريطانيا وفرنسا ومن معهم ، وكانت النتيجة هزيمة المانيا وكذلك هزيمة الدولة العثمانية ، وكانت أوروبا الاستعمارية قبل هذه الحرب تخطط لتقسيم الدولة العثمانية واقتسم مناطقها ، وكان اسم هذه الدولة في المفهوم السياسي الأوروبي (الرجل المريض) وتسمى العلاقات معها بـ (المسألة الشرقية)<sup>(1)</sup> وهكذا وجدت اتفاقية (سايكس بيكو) بين بريطانيا وفرنسا التي قسمت منطقة بلاد الشام بين هاتين الدولتين الباغيتين فكانت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وفلسطين وشرقى الأردن تحت الانتداب البريطاني ، ومصطلح (انتداب) يعني أن شعوب هذه المنطقة لا تستطيع إدارة نفسها ، ولا بد من وصي عليها مؤقتاً؟!

وبحلول عام 1918 وانتصار الحلفاء ، كان القائد البريطاني (اللنبي) قد احتل جنوب فلسطين وواصل سيره إلى دمشق ، وفي الوقت نفسه كان الأمير فيصل بن الحسين ومعه الضابط البريطاني (لورنس) قد وصل دمشق . وهنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ سوريا الحديث ، وفي هذه المرحلة كان للشيخ رشيد رضا دُوراً بارزاً .

في هذه الظروف : وجود الأمير فيصل وانكشاف أمر اتفاقية (سايكس - بيكر) مما حدا بالنخبة السورية للخوض في مسألة الاستقلال ، وبدأ الأمير فيصل بمطالبة الحلفاء بتنفيذ وعودهم حول الدولة العربية ، وأيده في ذلك حزب (الاتحاد السوري) الذي كان قد تشكل في مصر من المهاجرين السوريين ، وكان الشيخ رشيد من أعضاء هذا الحزب ، وقد هاجم في (مناره) السوريين الذين رضوا بمقررات الحلفاء والخضوع لفرنسا ، ثم ظهر : المؤتمر السوري الذي ضم نواباً وشخصيات تمثل كافة البلاد وترأس هذا المؤتمر الشيخ رشيد ، وعقد المؤتمر أولى جلساته في 3/6/1919 وكان من مقرراته ومطالبه : الاستقلال السياسي التام الناجز لكل بلاد الشام ، ولا يعترف المؤتمر بأي حق تدعى فرنسا على أي بقعة في أرض الشام .

ولا يحق لأي حكومة كانت أن تقبل باسم الأمة السورية أي شرط من الشروط التي تخالف قرارات المؤتمر ، وإذا وقعت على صك يخالف قرار المؤتمر فال المؤتمر يعتبرها غير شرعية ، ويعتبر المؤتمر أن البلاد مستقلة استقلالاً تاماً ، وهذه المقررات كانت موجهة أيضاً إلى لجنة الاستفتاء الأمريكية المكلفة من عصبة الأمم لبحث القضية السورية ، وقد تمسك هذا المؤتمر بالحق في مراقبة السلطة التنفيذية التي شكلها الأمير فيصل بن الحسين باعتبار ذلك من الشورى اللازم ، ولكن فيصل لم يقبل بهذا الحق للمؤتمر ولا يأذن للحكومة أن تكون تحت سيطرة المؤتمر ، وعند ذكر الأمير فيصل أنه هو الذي أوجد المؤتمر رد عليه الشيخ رشيد : " أنت مخطيء في هذا ، المؤتمر هو الذي مكّن لك في الحكم وكنت قبله مجرد قائد في جيش(اللبناني) والمؤتمرون مؤيدون من زعماء البلاد وعلماء الدين والوجهاء ، وهو الممثل للشعب السوري " .

كانت وجهة نظر الشيخ رشيد في شكل الحكومة التي سعى المؤتمر إلى إقامتها في دمشق أن تكون ذات صبغة إسلامية محضة حتى تكسب عطف المسلمين ، نصب الأمير فيصل ملكاً على سوريا ، وقبل الشيخ التعاون معه رغم عدم ثقته بوالده الشريف حسين ، ربما لقوة المؤتمر السوري وللمصلحة العامة في سوريا ، ولكن الأمور بدأت تأخذ منحاً آخر وتعقدت المسألة السورية ، وقبل فيصل بما فرض عليه الحلفاء في مؤتمر (سان - ريمو) بل قبل بالشروط التي أرسلها الجنرال (غورو)

ولكنّ هذا لم يشفع له عند فرنسا ودخل الجيش الفرنسي إلى دمشق بعد مقاومة جاءت على عجل يقودها وزير الدفاع يوسف العظمة، واضطر فيصل للخروج من سوريا ، ونصبته ببريطانيا بعدئذ ملكاً على العراق .

لم يقبل المؤتمر السوري بهذا الاحتلال ، وكانت آخر جلساته في 19 / 7 / 1920 ، ولذلك صدر حكم الاعدام على معظم أعضاء المؤتمر فاضطروا إلى الاختفاء أو الخروج من سوريا ، ثم ومن خلال حزب الاتحاد السوري نظموا أنفسهم في لجنة تنفيذية سورية فلسطينية التي دعت إلى مؤتمر عام في مدينة جنيف عام 1921م وانعقد هذا المؤتمر الذي جمع عدداً غير قليل من السوريين والفلسطينيين واللبنانيين ، ووضع تقريراً مفصلاً عن أحداث سوريا وقدمه إلى عصبة الأمم مع المطالبة بالاستقلال الكامل لكل بلاد الشام . وقد كون هذا المؤتمر وفداً دائماً يبقى في أوروبا ليكون على صلة بالأحداث التي تتعلق بالبلاد السورية . وقد رأس هذا المؤتمر ميشيل لطف الله وكان نائب الرئيس رشيد رضا . ومن الأعضاء البارزين الأمير شكيب أرسلان الذي استقر في مدينة (لوزان) في سويسرا وأصدر هناك جريدة (الأمة العربية) باللغة الفرنسية . وكان مدافعاً قوياً عن القضية السورية وغيرها من قضايا العرب والمسلمين ، وهو على اتصال بالشيخ رشيد الذي كان صليباً ومخلصاً في المطالبة باستقلال البلاد التي انفصلت عن الدولة العثمانية ، ولم يتنازل عن هذا المطلب في أي فترة من فترات حياته .

كان من آثار هزيمة الدولة العثمانية أن قرر الحلفاء المنتصرون وبموجب معاهدة (سيفر) 1920 الاعتراف باستقلال اليونان والبلغار وخروج أهلها عن السيادة العثمانية ، ولم يكتفوا بذلك بل حرضوا اليونان على مقاومة الجيش العثماني واحتلال أراضٍ من تركيا ، وقد فعلوها ووصلوا في احتلالهم إلى مدينة أزمير . وهنا تصدى لهم الجيش العثماني بقيادة الضابط مصطفى كمال ، وانتصر على اليونان انتصاراً ساحقاً ، مما أثار الحمية والبهجة في نفوس المسلمين ، وهذا مما جعل مصطفى كمال هو سيد الموقف في تركيا وأصبح ينظر إليه وكأنه البطل الذي انتظره المسلمون .

وبعد معاهدة (لوزان) التي عقدها مصطفى كمال مع الحلفاء وكانت أقل ضرراً من معاهدة (سيفر) أصبح موقع السلطانيين وحيد الدين (1918 - 1922) وعبد المجيد الثاني (1922 - 1924) أصبح صورياً ولا نفوذ لهما .

هل الشيخ رشيد في البداية لهذا الانتصار كما هلل له الشعراء مثل احمد شوقي:

## الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ولكن هذه الإشارة من الشيخ لم تطل ، فسرعان ما أُعلن مصطفى كمال عن ميلاد الجمهورية التركية (1923) وحصر أمور الخلافة في الأمور (الروحية) الخالصة<sup>(2)</sup> وألغى المحاكم الشرعية والتعليم الديني ، وفصل بين الدين والدولة بشكل نهائي ، ثم أعقب ذلك بانهاء السلطنة العثمانية عام ( 1924 ) .

اضطرب الشيخ لهذه القرارات وأعلن معارضته الشديدة لهذه التصرفات وندد بها واعتبرها من دسائس الأوروبيين التي تحاك ضد الإسلام ، وقد استفزه هذا التحول فبدأ الشيخ يكتب فصولاً في (المنار) حول الخلافة وأحكامها وكيفية التجديد في بعض مسائلها ، سعياً لإحياء هذا المنصب مفندًا مزاعم الأجانب حول إمكانية الفصل بين الدين والدولة وأعاد كلام الماوردي وابن خلدون حول منصب الخلافة (حراسة الدين وسياسة الدنيا به) وجمعت المقالات التي كتبها في كتاب الإمامية أو الخلافة العظمى) ، ولم يكتف الشيخ بالكتابة بل دعا إلى مؤتمر عام يبحث فيه أمر الخلافة ، وأن يكون مقر هذا المؤتمر في مصر ، وقد تم عقد هذا المؤتمر في عام (1926) ولكنه لم يصل إلى نتائج ملموسة بسبب التفرق الذي ساد المحاورات وبسبب ذكر أسماء من يصلحون لتولي هذا المنصب (الخليفة) وكان موقف الشيخ حياديًا لم يدل برأي خاص ، وأرسل إلى صديقه الأمين شبيب أرسلان يشكو فيها من (سوء المصير الذي تردد فيه مسألة الخلافة) .

في عام 1931 دعا مفتى القدس ورئيس المجلس الإسلامي في القدس الحاج أمين الحسيني إلى مؤتمر إسلامي عام من غاياته:

## ١ – نشر أساليب التعاون الإسلامي، وعمم ذلك .

٢- وقاية الدين الاسلامي من عوارض الفساد وأعجاز مبادئه وصيانة عقائده وحماية أرضه من كل طامع .

3 – إنشاء جامعة إسلامية لتوحيد ثقافة المسلمين العالمية .

٤- المحافظة على المسجد الأقصى والتنبه إلى خطر الصهيونية على فلسطين.

5- الاهتمام بخط السكة الحديدية الحجازية بين دمشق والمدينة المنورة والتابعون اللازم لاسترداد أقسام هذا الخط.

وكان على رأس المدعويين لهذا المؤتمر الشيخ رشيد رضا ، وعقد المؤتمر بتاريخ 27 رجب / 1350 هـ الموافق 7 / 12 / 1931 م ولم يتكرر اجتماع هذا المؤتمر ولم تنفذ القرارات الرئيسية مثل الجامعة الاسلامية ، وتأسيس مكاتب للدعوة في كل دولة وفي هذه الفترة كان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود قد وحد غالبية الجزيرة العربية تحت رايته ومنها مكة

والمدينة فتحول الشيخ رشيد لناصرة هذه الدولة خاصة وأنها امتداد لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ولم يعد يذكر الشيخ موضوع الخلافة والسعى إليها ، وكانت هذه آخر مراحل حياته السياسية ويبقى أن العمل الأبرز في حياته السياسية كان في موطنه بلاد الشام .

من خلال هذا الاستعراض للمراحل السياسية التي مر بها الشيخ والمحطات التي وقف عندها ، فهو مع السلطان عبد الحميد ثم يناصر الاتحاديين ثم ينقلب عليهم ، ويناصر الشريف حسين بن علي ثم يبتعد عنه وينقلب عليه .

فهل كان الشيخ يعاني اضطراباً في مواقفه السياسية ، وهل كان الأجدر بمثله أن يتربى قليلاً ليعلم أهداف الاتحاديين وغاياتهم ، وبعد ذلك لماذا لم يتتأكد من استقلالية الشريف حسين وما هي الأهداف التي يرجوها من الصلة مع الانكليز ؟ ولماذا لم يبحث ويسأل عن شخصية مصطفى كمال ومن هو وما هي وجهته السياسية وإذا كان مصطفى كمال من جمعية تركيا الفتاة فهي تابعة للاتحاديين ، أم كان يبحث صادقاً عن صيغة معينة أو هيكل سياسي يظنه طريراً للمأمول ، صيغة تجمع ما بين الخلافة الموحدة لجميع العناصر والإدارة الناجعة أمام الزحف الغربي ثم يكتشف أن الواقع غير ما يؤمّل ؟ فهو معذور في ذلك والذي لا شك فيه أن الشيخ في كل كتاباته ومحاولاته إنما يريد عزة الإسلام والمسلمين ، وكما كان يصف نفسه بأنه من حزب الإصلاح ، هذا الحزب الذي تأسس فكرياً ولم يتأسس سياسياً .

---

1 - هي في حقيقتها مسألة غريبة ، فالغرب هو المخطط والمنفذ لها .

2 - مثل بابا روما .

المصادر: